



استراتيجية المسلمين في بناء المدن: دراسة لمدينة الفسطاط

الدكتور بلحاج طرشاوي

قسم الفنون- كلية الآداب- جامعة تلمسان، الجزائر

hadjtar@yahoo.fr

تعريف المدينة:

يختلف علماء الاجتماع اختلافا كبيرا في تعريف المدينة بحيث يصعب علينا اعتماد هذه التعاريف كمرجع لتعريف المدينة الإسلامية. وسبب هذا الاختلاف راجع إلى أن مفهوم المدينة كغيره من المفاهيم يرتبط بعوامل نشأة هذه المدن. ويبرز المدن موضوع الدراسة بالإضافة إلى هذا فإن أغلب التعاريف ترتبط - تتعلق - بالمدينة الغربية⁽¹⁾ وبالتالي فإنه لا يمكن أن نسحب هذه التعاريف على مفهوم المدينة الإسلامية لوجود اختلافات جوهرية من حيث أسباب النشأة والوظيفة، والتخطيط... وكما اختلف علماء الاجتماع في إعطاء تعريف موحد للمدينة، فإن علماء الإسلام اختلفوا في تعريف المدينة، ويرجع سبب اختلافهم عادة إلى اختلاف تخصصاتهم.

تعريف الفقهاء:

لا يعطي الفقهاء تعريفا منضبطا للمدينة الإسلامية، ويكتفون في الغالب بتحديد الشروط التي ينبغي توافرها عليها. وأحيانا يعد دون هذه الشروط من خلال ذكر أوصاف هذه المدن، فيعلم بأن هذه الأوصاف ما هي إلى الشروط التي يجب توافرها في المدينة. وفي الغالب يتفق الفقهاء على هذه الشروط التي يجب أن تحوزها المدينة وأهم هذه الشروط هي إقامة صلاة الجمعة، فيذكر الماوردي: " أنه لا تقام صلاة الجمعة إلا في وطن مجتمع المنازل"⁽²⁾.

ويقول الإمام أبو حنيفة في سياق حديثه عن صلاة الجمعة: " تختص الجمعة بالأمصار ولا يجوز إقامتها في القرى"، وأعتبر المصر بأن يكون فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام⁽³⁾. فالمدينة عند أبي حنيفة هي: كل بلد تقام فيه الجمعة، ويقوم فيه حاكم يسوس الناس، وقاض يحكم بينهم بالعدل. وهو في هذا يستدل بالحديث النبوي الشريف: " لا جمعة ولا فطر ولا أضحي إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة"⁽⁴⁾، والمصر في الحديث هومدينة المدن التي أسسها المسلمون، وأطلقوا عليها اسم "أمصار".

ويورد ابن خلدون كلاما أكثر دقة وأكثر شمولا، أثناء حديثه عن أسباب نشأة المدن، والشروط التي ينبغي أن يراعيها مؤسسو المدن، فالمدينة عند ابن خلدون مظهر من مظاهر الترف، والميل إلى الاستقرار⁽⁵⁾.

ومن الشروط التي يضعها ابن خلدون: أن تكون المدينة في مأمن عن الأعداء ولا يتحقق ذلك إلا بإحاطة المدينة بسيج من الأسوار. أو اختيار الأماكن الوعرة التي يصعب الوصول إليها، كالأماكن الوعرة من الجبال، أو تكون على قرب من نهر أو بحر. ولا يكتف ابن خلدون بالشروط ذات الطابع العسكري فهي وإن كانت مهمة فإنها تبقى غير كافية، فإن الناس وإن امتنعوا عن العدو، فإنهم لا يأتون على أن أنفسهم الأمراض والأوبئة. فيراعى عند اختيار المدن طيب الهواء والسلامة من الأمراض⁽⁶⁾.

ويراعى عند اختيار مواضع المدن أن تكون قريبة من مصادر المياه، لأن وجود الماء قريبا من السكان يسهل عليهم الوصول إليه فتستقيم بذلك حالهم. ويتيسر لهم بتيسر الماء تيسر المرعى وهو ضروري لحيواناتهم.



تعريف الجغرافيين:

أشار الجغرافيون إلى عدة تعريفات للمدينة، وهي تكاد تكون واحدة وتشبه إلى حد كبير ما ذكره الفقهاء واللغويون من تعاريف، مما يؤكد اتفاق النظرة الإسلامية للمدينة. ويعتبرا لمقدسي من الجغرافيين الذين أعطوا مفهوما دقيقا للمدينة الإسلامية فيقول: "..... المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقاليم " وفي نفس السياق يعرض المقدسي مفهوم المدينة عند الفقهاء فيقول: " إنهم اختلفوا في تحديد معنى المصر، فكان هذا بحسب رأيهم كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستا قه⁽⁷⁾ فالمقدسي يجعل من خصائص المصر أربعة أمور:

- ❖ بلد جامع
- ❖ وجود الحاكم
- ❖ النفقات والمصاريف
- ❖ إقامة الحدود

والمراد بالبلد الجامع: أو البلد الجليل، كثافة السكان وسعة المساحة. وإقامة الحدود فتدل على وجوب إيجاد القاضي ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. أما الخصائص المتبقية فتشير إلى الاستقلالية.

أما القزويني فيرد نشأة المدن إلى طلب الاستقرار والأمان، فإن الناس إن اجتمعوا في الصحاري لم يأمنوا عدوان اللصوص، ولوسكنوا القرى لم يأمنوا صولة ذي القوة، فاهتدوا إلى اتخاذ الأسوار والخنادق، فحدث نتيجة لهذه الظروف نشأة المدن⁽⁸⁾ ولم يكن اختيار مواضع المدن من قبيل الصدفة، بل إن العلاء فد حددوا لها شروطا يجب مراعاتها في اتخاذ المدن، ومن أهم هذه الشروط، اختيار المواقع الملائمة للسكنى، فتقام في أعلى مكان من الساحل والجبال، ومهب الشمال لأنها تفيد صحة أبدان أهلها⁽⁹⁾ ومن خصائص المدن الإسلامية، التي نميزها عن باقي المدن الأخرى، وجود المساجد الجامعة، والأسواق، والخانات، والحمامات، ومراكز الخيل، ومعاطن الإبل...⁽¹⁰⁾

عوامل نشأة المدن:

يمكن ملاحظة نوعين من المدن الإسلامية. النوع الأول هي المدن التي كانت موجودة قبل الهجرة النبوية كلكه والمدينة ودمشق.. ولهذه المدن عوامل نشأتها وقد تكون هذه العوامل هي ذاتها التي أدت إلى ظهور النوع الثاني من المدن. غير أن المسلمين بعد دخولها طبعوها بطابعهم الديني والثقافي والاجتماعي..

والنوع الثاني من المدن فهي التي ارتبط ظهورها بظهور الإسلام ومن أجل دراسته نمط المدينة الإسلامية وخصائصها والمؤثرات فيها فأننا نفصل دراسة هذا النوع من المدن لأنها مدن إسلامية مخطئة. ومن خلال نتبع مراحل نشأة هذه المدن يمكننا أن نحدد عوامل نشأتها.

العامل العسكري:

حين تولى عمر ابن الخطاب الخلافة واصل الفتح الذي بدأ في خلافة أبي بكر فوجه الجيوش إلى العراق والشام وكان من مقتضى الفتح أن يؤسس أمراء الجند قواعد عسكرية ينطلقون منها ويعودون إليها عند الحاجة وسرعان ما تحولت هذه القواعد العسكرية إلى مدن فصارت أول المدن الإسلامية إنشاء. فنشأت المدن الأولى في الإسلام كالبصرة والفسطاط والقيروان، وكان الأمراء يتولون اختيارا مواقع هذه المدن بعناية فائقة ويراعون فيها عدة شروط (بيئية وجغرافية...) وبعد اختيار الموقع يأتي تخطيط الكتل المعمارية المختلفة وفي مقدمتها المسجد. ففي كل المدن التي أنشأها الصحابة كان أول ما



يختطونه المسجد لأهميته الاجتماعية والسياسية والثقافية، ويكون غالبا في وسط المدينة ثم بعد المسجد تأتي دار الإمارة ثم الخطط وقطائع القبائل والتي تقام فيها مساكن الجند محيطة بالمسجد. وقد أتمد الأمراء في تقسيم القطائع على عامل العصبية القبلية⁽¹¹⁾ إقتداء بما فعله رسول الله في قطائع المدينة. وفي بداية تكوين هذه المدن كان يسكنها الجند فقط ثم لحقت بهم أسرهم، ثم سمح لمختلف القبائل العربية بالهجرة إلى هذه المدن. وسرعان ما توالى الهجرات فانقلت هذه المدن الصغيرة إلى حواضر. وما يميز هذه المدن عن غيرها من المدن أن التوسع المعماري تم بطريقة عشوائية، فلم يتدخل الأمراء في تخطيط هذه المدن تخطيطا منظما واضح الرؤية والهدف، كما حدث بالنسبة لبغداد مثلا، فكانت التنمية العمرانية داخل المدينة متروكة للأفراد في إطار النظام القبلي التي قسمت إليه المدينة.⁽¹²⁾ وأدى تزايد سكان هذه المدن إلى ازدهار عمرانها واختلاف منشآتها المعمارية، وساهم في هذا الازدهار توفر هذه المدن على خصائص ومقومات حضارية أسهمت في نموها. فقد بلغ سكان البصرة في العهد الأموي ثلاث مائة ألف، وهو عدد يعكس الكثافة السكانية لهذه المدن، والذي بدوره يعطينا تصورا عن عدد دورها ومنشآتها المعمارية⁽¹³⁾.

العامل الجغرافي:

إن المدن الإسلامية الأولى أوالتي اصطلحنا على تسميتها بمدن المعسكرات قد روعي عند اختيارها العامل الجغرافي والبيئي مما يلاءم الحالة الصحية للجند ويقربهم من مركز الخلافة، ويسهل وصول المدد إليهم عند الحاجة فلقد كتب عمر بن الخطاب إلى مؤسس الكوفة: "إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فأبعث سلمان وحذيفة يرتادا منزلا بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر".⁽¹⁴⁾ فبعث سعد بن أبي وقاص سلمان وحذيفة كل من جهة فسارا حتى وصلا إلى مكان الكوفة شرقي الفرات فأعجبتهما البقعة.

فعمر رضي الله عنه يحدد عاملين أساسيين في اختيار مواقع المدن: الأول بيئي وهو أن يكون جوها ملائما لما ألفه العرب، وقد روي أن المسلمين أصابهم الوباء عند دخولهم المدائن فاتحين. أما الشرط الثاني: وهو جغرافي، فيحرص من خلاله عمر على اختيار موقع المدينة بحيث يسهل الوصول إليها عند الشدائد.

وليس من باب الصدفة أن يختار عمرو بن العاص موقع الفسطاط مكانا لتأسيس مدينته فهولا يوجد بينه وبين الخليفة فاصل مائي يحول دون وصول المدد إلى جند الإسلام، والأمر الثاني أن المدينة واقعة على نهر النيل وبالمقابل اشتملت على مجال كبير لتوسع المدينة من جهة الشمال، فبنيت بعد ذلك القطائع والقاهرة الفاطمية.⁽¹⁵⁾

وكثيرا من المدن تعود نشأتها إلى العوامل الجغرافية، فهي تقع في الغالب على ضفاف الأنهار والبحيرات، لهذا نجد أن أغلب الحضارات قامت على ضفاف مراكز المياه كالحضارات المصرية والبابلية.⁽¹⁶⁾

أما الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري حين بدأ في البحث عن مكان يختط فيه مدينته، فإنه حاول جاهدا أن يبتعد عن الماء، وهي سواحل البحر الأبيض المتوسط. فذكر ياقوت الحموي أن عقبة بن نافع اختار موقع مدينته الجغرافي لبعده عن البحر مخافة مهاجمة مراكب الروم لمدينته.⁽¹⁷⁾ وهو اختيار موقوف لا يبتعد كثيرا عن الشرط الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب، فالعرب في ذلك الوقت ليس لها أسطول بحري يستطيع مواجهة الروم في البحر،⁽¹⁸⁾ وهو أيضا اختيار استراتيجي عسكري. ونحن نكتفي في هذا المجال بهذه الأمثلة وهي كثيرة وسنعود للحديث عن هذه المدن في مواضعها من هذا البحث.



كان انطلق منه وترك به فسطاطه، فلما وصل المكان قال لأصحابه: أين ننزل؟ فقالوا: ننزل بفسطاطك فسميت المنطقة بذلك⁽²³⁾.

وإن كان أغلب المؤرخون قد اعتمدوا رواية الفسطاط واليمامة، فإننا لا يمكن أن نعتبر أن اختيار الموقع قد وقع بمحض الصدفة، أودون بحث وتمحيص، ومما لا شك فيه أن عمرو بن العاص والصحابة قد اختاروا مكان المدينة لما يوفره من مزايا طبيعية وعسكرية، ولولا هذا الأمر لا اختار عمرو بن العاص سكنى الإسكندرية، وهي مدينة عامرة، وعمارته متصلة. وذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص رغب في سكنى الإسكندرية، فقد ذكر المقربون منه: "أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا هم أن يسكنها وقال: "مساكن قد كفيهاها فكتب إلى عمر يستأذنه في ذلك"⁽²⁴⁾. فكان رد عمر: أنه رفض أن يسكن جند المسلمين في منطقة يحول بينه وبينهم الماء، فيصعب وصول الإمدادات العسكرية إليها، كما يصعب وصول البريد إليهم عند الحاجة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية: فإن الجيوش الإسلامية في هذه الفترة كانت أغلبها جيوش برية، فكانوا أبعد الأمم عن استعمال الأساطيل البحرية بخلاف أعدائهم من الروم الذين ألفوا هذا النوع من الحرب، والذين كانوا يملكون أسطولا بحريا متطورا، وقد تحدثنا في تمصير الكوفة والبصرة عن نظرة عمر العسكرية الثاقبة والقائمة على الاحتياط وعدم التهور وإلقاء بالجند إلى المجهول.

فتأسيس مدينة الفسطاط، واختيار موقعها قد أمثته ظروف وخيارات عسكرية، وقد أثبت هذا الاختيار صحته فقد ظلت مدينة الفسطاط، محل إقامة الولاة والأمراء إلى أوقات متأخرة من عصور الإسلام، وحتى بعد أن دمرت عاد إليها الناس من جديد واستحدثوا ما هدم منها وسكنوا مدينتهم، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الاختيار لم يكن اعتباطيا.

عرفت مدينة الفسطاط، منذ تأسيسها على يد عمرو بن العاص أوقات مزدهرة كما عرفت أوقانا عصبية، فلقد نزلها أمراء مصر منذ الفتح إلى غاية إنشاء مدينة العسكر سنة 133هـ على يد صالح بن علي * وأبي عون عبد الملك عند ملاحقتهم لآخر الخلفاء الأمويين وهو: مروان بن محمد* ولما أنشأ ابن طولون* القطائع سنة 256هـ صار الناس ينزلون القطائع، ولما ولت دولة ابن طولون، عاد الأمراء ينزلون العسكر وظلوا على تلك الحال من إقامتهم بالعسكر، حتى جاء المعز لدين الله الفاطمي* وأمر قائده جوهر الصقلي* ببناء القاهرة، فنزل الخلفاء الفاطميون القاهرة، واستمر الناس في سكنى الفسطاط، وقد اتسعت عمارتها وحين تغلب الصليبيون على سواحل الشام، وتوجهوا إلى غزو مصر، وعجز الوزير شاور ابن مجير السعدي* من مدافعتهم فأختار بين التخلي عن الفسطاط أ والقاهرة، فأمر الناس بإخلاء الفسطاط، وأضرم فيها النيران، فأحرقت الفسطاط، وظلت النار مشتعلة فيها قرابة الشهر. فلما ارتحل الصليبيون عن مصر، وصار الأمر في مصر بيد الوزير شيركوه* أمر الناس بالعودة إلى الفسطاط.⁽²⁵⁾

واختلف المؤرخون في تاريخ بناء الفسطاط، ومنشأ خلافهم، أنهم اختلفوا في السنة التي فتح فيها عمرو بن العاص مدينة مصر، فيذكر البلاذري* أنها فتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة.⁽²⁶⁾ أما ابن الأثير، فإنه يذكر في سنة تأسيسها عدة روايات؛ أولها أنها فتحت سنة 20هـ، ثم ذكر أنها فتحت سنة 25هـ أو 26هـ من شهر ربيع الأول، ثم يرجح أنها فتحت قبل عام الرماد، فقد حمل في هذه السنة الطعام من مصر إلى المدينة.⁽²⁷⁾

ومنذ تأسيس المدينة عرفت تطورات سريعة، فوفد عليها الناس والجند من الفاتحين، وقد كانت مدينة الفسطاط أشبه إلى الرباط، فكان جند الإسلام ينزلون بها قبل التوجه إلى شمال إفريقيا قبل إنشاء القيروان، وظلت على هذه الحال لفترة زمنية طويلة، قبل إنشاء مدن جديدة داخل مصر مثل القطائع والعسكر، ثم إنشاء عقبة بن نافع الفهري لمدينة القيروان.

واشتهرت مدينة الفسطاط عند الجغرافيين والرحالة، فذكر المقدسي في وصف الفسطاط: بأنها محل إقامة الوالي، وقد جمعت إليه الدواوين وفصل بين المغرب وديار العرب، وكانت واسعة الرقعة



مجلة علوم إنسانية WWW.ULUM.NL السنة السابعة: العدد 44: شتاء 2010 - Issue 44, Year 7th, Jan.

كثيرة السكان (ليس في الأمصار أهل منه كثير الأجلة والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص حسن الأسواق والمعاش.. ليس في الإسلام أكبر مجالس منه جامعة ولا أحسن تحجلا من أهله ولا أكثر مراتب في ساحله).⁽²⁸⁾

وصارت الفسطاط في الخلافة الأموية تشتمل على الدور الأنيقة والمساجد والحمامات والقيساريات والمستشفيات...

وظلت مدينة الفسطاط تلعب دورا حضاريا هاما في مصر وفي المنطقة كلها إلى أن أمر الوزير شاور السعدي بإحراقها سنة 564هـ 1168م لما عجز عن الدفاع عنها ضد الصليبيين. خطط المدينة:

لما استقر رأي عمرو بن العاص على اتخاذ مكان الفسطاط مقرا لبناء مدينته الجديدة، فإن القبائل المرافقة له تنازعت مواضع وخطط المدينة، فولى عمرو بن العاص معاوية بن خديج وشريك بن سمحي الغطفي وعمر بن قحزم الخولاني وجبريل بن ناشرة المعافري، فتولى هؤلاء النفر من الصحابة تقسيم الخطط بين أفراد القبائل العربية وكان ذلك سنة 21هـ.⁽²⁹⁾ ويظهر من أسماء هؤلاء أنهم كانوا من قبائل مختلفة، فلقد أراد عمر وبما عرف من دهاء أن يفصل بين أفراد هذه القبائل قبل أن يستفحل داء الخصومة فينصرفون عن قتال العدو وربما شغلهم ذلك عن مواصلة الفتح.

والملاحظ أن ما وقع في الفسطاط من نزاع بين أفراد القبائل لم يقع عند إنشاء المدن الإسلامية السابقة له ولم يضطر الأمراء إلى إنشاء لجان لتقسيم الخطط ولا ندري لذلك سببا على وجه الخصوص، وربما كان الدافع إلى ذلك خصوبة أرض مصر مقارنة بمدينة البصرة والكوفة.

وتتفق مدينة الفسطاط، مع غيرها من مدن الأمصار أنها وزعت على خطط بين القبائل العربية، كما هوشأن منهج الإسلام في اختطاط المدن، ومع ذلك ينبغي الإشارة إلى اختلاف واقع قد خالفت فيه الفسطاط من سبقها من المدن، وهوان بعض الخطط لم تنفرد بها قبيلة واحدة، وإنما اشتركت فيها مجموعة من القبائل لا يجمعها الارتباط القبلي ولكن يجمعها الارتباط العسكري كما هو الشأن في خطة أهل الرابية.

خطط الفسطاط:

1- خطة أهل الرابية:

وأهل الرابية جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وجهينة ولقيف ودوس وعبس، وسموا أهل الرابية لأنهم لم يكن لهم العدد الكافي لينتمي كل منهم لقبيلته، فكرهوا أن يتسموا بغير أسماء قبائلهم، قسما هم عمرو بن العاص أهل الرابية ولم ينسبها لأحد.⁽³⁰⁾ وكانت خطة أهل الرابية خطة واسعة تقع في وسط المدينة محيطة بالجامع من جميع جوانبه، وهي من أوسع خطط الفسطاط، وكانت داخل هذه الخطة خطط صغيرة تنسب في كثير من الأحيان للجمعات القبلية مثل خطة أسلم وخطة قيس بن سعد بن عبادة وخطة تقيف، وكانت لكل خطة صغيرة سوقها ومسجدها، فنجد في خطط أسلم، سوق بربر وسوق الحجامين.⁽³¹⁾

2- خطة مهرة:

وتنسب هذه الخطة إلى بني مهرة بن قضاة، وكانت هذه الخطة قبل خطة أهل الرابية وتصل إلى الجبل مما يلي الخندق إلى شرقي العسكر، وكانت الخطة تضم مسجدا عليه قبة سوداء.⁽³²⁾



3- خطط لخم:

وكانت هذه الخطة، في موضعين؛ فمنها خطة لخم بن عدي، ومن خالطهم من قبائل جذام، وتبدأ هذه الخطة من الموضع الذي انتهت إليه خطة الراهية، ثم تصعد باتجاه الشمال وفيها سوق بربر، وشارعه مختلط بين لخم وأهل الراهية.⁽³³⁾

ونكتفي بهذا العدد من الخطط، فليس القصد استظهار كل الخطط التي وجدت في مدينة الفسطاط* ولكن القصد أن نبين أن عمرو بن العاص في تقسيمه الخطط لم يخرج عن المنهج القبلي، الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إعادة تنظيمه لخطط المدينة، وهونفس المنهج الذي وجدناه فيما بعد عند إنشاء البصرة والكوفة، ووجدناه أيضا في المدن المتأخرة في الظهور عن هذه المدن كمدينة القيروان ومدينة بغداد.

الخصائص المعمارية للفسطاط مسجد الفسطاط:

يعتبر مسجد عمرو بن العاص أول مسجد بني في مصر بعد الفتح الإسلامي، وهو أول مسجد يشيد في إفريقيا.

وكان مسجد عمرو بن العاص في غاية البساطة، شأنه في ذلك شأن المساجد الأولى التي شيدت في بداية الإسلام، ونظرا للتعديلات وعمليات الهدم المتلاحقة التي قام بها الأمراء والولاة، فإننا لا نعثر على الشكل العام للمسجد إلا من خلال ما ذكره المؤرخون عند حديثهم عن مسجد عمرو بن العاص. والمسجد عبارة عن شكل مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب بحوالي 25م (50 ذراع)، ومن الشمال إلى الجنوب حوالي 15م (30 ذراع)، وكان سقفه منخفضا تحمله أعمدة من جذوع النخيل، مغطى بسعف النخل وبالطوب، والمسجد له ستة أبواب موزعة على الشكل التالي:

بابان في الجانب الشمالي

بابان في الجانب الغربي.

بابان في الجانب الشمالي مقابل دار عمرو.⁽³⁴⁾

وكانت خطط الفسطاط تحيط به من كل جهة باستثناء جهته الشمالية الغربية فإنها كانت تطل على نهر النيل.⁽³⁵⁾

وبخلاف المساجد الأولى في الإسلام، فإن مسجد الفسطاط لم يكن له صحن ولم يكن له محراب ولا منذنة، أما فيما يخص المنبر فيذكر المقرئبي: أن الوالي عمرو بن العاص، اتخذ منبرا يقوم عليه، فكتب إليه عمرو بن الخطاب ينهيه عن اتخاذ منبر وكتب له: (أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك).⁽³⁶⁾

فكسره عمرو بن العاص، ويذكر المؤرخون أن قره بن شريك هو أول من نصب المنبر بجامعة عمرو بن العاص وذلك سنة 94هـ، وذكر الكندي أن هذا المنبر هو أقدم المنابر في بلاد الإسلام بعد منبر رسول الله بالمدينة المنورة.⁽³⁷⁾

وظل هذا المنبر قائما في مسجد عمرو بن العاص حتى سنة 379هـ، حتى قلعه وكسره العزيز بالله الفاطمي، وجعل مكانه منبرا مذهبيا.⁽³⁸⁾

وظل المسجد على الحال التي بناه عليها عمرو بن العاص، حتى ضاق المسجد بالناس، فشكوا الأمر إلى الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري، فكان أول من وسعه وزاد فيه وأدخل فيه زيادات معمارية لم تكن معهودة في المساجد الأولى في الإسلام وكانت زيادة مسلمة في المسجد سنة 53هـ.

فزاد فيه باتجاه (شمالي شرقي) و(شمالي غربي) وأضاف له فناء في الجهة البحرية وغطى جدران المسجد بالحصى وفرش أرضيته بالفرش وكانت قبل ذلك مفروشة بالحصى.⁽³⁹⁾



مجلة علوم إنسانية WWW.ULUM.NL السنة السابعة: العدد 44: شتاء 2010 - Issue 44, Year 7th, Jan. -
ومسلمة بن مخلد هو أول من أمر باتخاذ المنار لمساجد مصر كلها باستثناء مساجد خولان وتجبب
وأمر أن يكتب اسمه على هذه المنائر.

فزاد فيه من الجهة الشرقية التي تلي عمرو بن العاص كما زاد فيه من الجهة البحرية ولم يحدث
فيه أي زيادة من الجهة القبليية ولا من الجهة الغربية وجعل له رحبة في الجهة البحرية. وأمر بزخرفة
الجدران والسقوف وفرشه بالفرش وقد كان مفروشا بالحصي.⁽⁴⁰⁾

وأمر مسلمة باتخاذ المنائر في كل المساجد باستثناء مساجد تجبب وخولان وأمر المؤذنين أن
يؤذنوا في زمن واحد فكان لأذانهم دوي شديد، كما أمر أن يكتب اسمه على المنائر.

وكان لمسجد عمرو أربعة مآذن تقوم في أركانها ويرى كبريز ويل أن مسلمة هو أول من اتخذ
المنائر، ومع ذلك فهو يرجع ذلك إلى تأثير الأمير الأموي بالأبراج المربعة القائمة في أركان المسجد
الأموي،⁽⁴¹⁾ وهو بذلك يريد أن يقرر حقيقة هامة وهي: أن المآذن الإسلامية ما هي إلى اقتباس من
الحضارات السابقة وهو يستدل على ذلك برواية لابن الفقيه (903هـ) والمسعودي، وينهي تعليقاته بقوله
(... ولذلك هناك أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد بأن الصوامع الأربعة التي بناها مسلمة من الأبراج الأربعة
في أركان فناء المعبد في دمشق).⁽⁴²⁾

الرواية التي ذكرناها في أصل إنشاء المآذن للكندي متقدم على ابن الفقيه وعلى السعدي ومع ذلك
فإن كبريز ويل قد أهملها ولم يعتمد عليها.

ولم يكن لمسجد الفسطاط محراب وذكر المقرئ في عدة روايات في أصل إنشاء المحراب، فذكر
عن ابن لهيعة أنه لم يكن المحراب مجوفا ولا أدري بناه مسلمة أو بناه عبد العزيز وبعد أن فرغ من ذكر
هذا القول ذكر "أن أول من جعل المحراب قرة بن شريك"،⁽⁴³⁾ فدل هذا أنه يرجح هذا الرأي ولم يذكر
مؤرخو مصر أن المحراب كان موجودا في مسجد عمرو بن العاص.

ولما تولى إمارة مصر عبد العزيز بن مروان، أمر بالزيادة في المسجد الجامع فهدمه كلية سنة
77هـ وزاد فيه من جوانبه كلها، ولا ندري نوع الزيادة التي زادها والمرجح أنها كانت أفخم وأترف من
زيادة مسلمة، يؤكد هذه الفخامة التي كانت عليها. وفي سنة 89هـ قام عبد الله بن عبد الملك برفع سقف
المسجد وكان المسجد منخفض السقف ولم يذكر ابن عبد الحكم هذه الزيادة.

وفي سنة 92هـ شرع الوالي قرة بن شريك في هدم المسجد بأمر من الوليد بن عبد الملك وابتدأ في
بناءه في نفس السنة وكان القائم على البناء رجل يسمى يحيى بن حنظلة بن عامر بن موسى بن لؤي وكان
الانتهاء منه سنة 93هـ ونصب له منبرا جديدا سنة 94هـ.⁽⁴⁴⁾ وزخرفه وذهب رؤوس العمود.

وسنكتفي بهذا القدر من الزيادات، وهي الزيادات التي حدثت في القرن الأول الهجري والمسجد
تعرض لعدد كبير من الزيادات على اختلاف الحكام والأمراء.⁽⁴⁵⁾

التطور المعماري والزخرفي للمسجد:

مر مسجد عمرو بن العاص بعدة تعديلات وزيادات وقد هدم أكثر مرة وهذا راجع إلى ضيق
مساحته الأولية التي كان عليها فقد كان ذا أبعاد متواضعة (15مx25) مقارنة بغيره من المساجد كمسجد
الرسول صلى الله عليه وسلم أو مسجد البصرة أو مسجد الكوفة، كما كان خاليا من الصحن الذي يستعمل
في كثيرا من الأحيان للصلاة إذا ضاق المسجد بأهله، وبطبيعة الحال فإن هذه النسب المتواضعة لن تلائم
التطور المعماري والزيادة في الكثافة السكانية التي كانت تعرفها مدينة الفسطاط، مما اضطر الولاة
الزيادة فيه في فترات متعاقبة ولم تعرف المساجد الإسلامية الأولى هذا العدد الكبير من الزيادات إذا
استثنينا مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وهو بطبيعة الحال بني في ظروف مختلفة، لعل أهمها الظرف
الزمني، فقد بني في السنة الأولى للهجرة في فترة كان لا يزال فيها الإسلام ضعيفا ولم يفتح بعد على
الحضارات المجاورة.



مجلة علوم إنسانية WWW.ULUM.NL السنة السابعة: العدد 44: شتاء 2010 - Issue 44, Year 7th, Jan.

والملاحظ أن عمرو بن العاص لم يول اهتماما بالغا بمجال العمارة وال عمران فجاءت أبعاد مسجده ضئيلة، ولم يهتم ببناء دار للإمارة كما هو الشأن في المدن الإسلامية الأولى، وربما رجع هذا العزوف إلى شخصيته العسكرية، فهو رجل كرس حياته للحرب والجهاد وعرف بهذا الميل قبل الإسلام. وكما كان الجانب المعماري في جامع عمرو بن العاص بسيطا ومتواضعا، فإن الزخرفة كانت منعدمة تماما فلا يذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص قد زخرف مسجده وأول زخرفة للمسجد كانت في عهد الوالي الأموي مسلمة بن مخلد، فتذكر الروايات أن مسلمة غير في أبعاد المسجد المعمارية وزخرفته وذكر المقرئزي: "ولاطه بالنورة وزخرف جدرانه وسقوفه، ولم يكن المسجد الذي لعمر وجعل فيه نورة ولا زخرف، وأمر بابتناء المنار الذي في الفسطاط"⁽⁴⁶⁾. ثم زاد قررة ابن شريك في المسجد عنصرا معماريا آخر وهو المنبر وزاد في الزخرفة بأن ذهب رؤوس الأعمدة، ولعله لم يذهب كل رؤوس أعمدة المسجد بل ذهب بعضها وهي التي عند المحراب. وزاد قررة ابن شريك عنصر المحراب ولم يكن جامع عمرو يشتمل على محراب مجوف.

دار الإمارة:

لم تذكر الروايات التاريخية أن عمرو بن العاص قد اختط دار الإمارة كما هو الشأن في مدينة البصرة أو الكوفة أو القيروان ويكتفي المؤرخون بذكر دار عمرو المقابلة للمسجد والذي يفصل بينهما زقاق طوله سبعة أذرع، ويبدو من دراسة هذه الروايات التي ساقها لنا المؤرخون كابن عبد الحكم وابن ثغر بردي والمقرئزي أن عمرا لم يتخذ دارا للإمارة وإنما اختط دارا لسكناه، شأنه في ذلك شأن جميع المسلمين ويؤكد هذا الرأي أن هذه الدار صارت لورثته ولو كانت دارا للإمارة ينزلها لأمرأ لما انتقلت إلى ملكية أبناء عمرو والدليل الثاني على هذا الأمر أن الخليفة الأموي مروان حين قدم مصر، نزل دار الفلفل وقال: "إنه لا ينبغي لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار فأمر بالدار البيضاء فبنيت له"⁽⁴⁷⁾، فلو كان بالمدينة دار إمارة لكان الخليفة نزل بها.

ونعود بمناسبة الحديث عن دار الإمارة لنؤكد شيئا هاما، سبق وأن ذكرناه. إن إطلاق لفظ دار الإمارة على منازل الأمراء المسلمين والولاية لا يعني السورة الحقيقية التي قد نفهمها من المصطلح، فدار الإمارة كانت من قصب يأوي إليها أمراء الجند وحتى بعد أن تم البناء بالطوب كانت تلازمها البساطة والميل إلى التقشف، هذا على الأقل في الفترات المتقدمة من تاريخ الإسلام، ونقصد فترة الخلفاء الراشدين حيث كان الصحابة هم أمراء الجند وولاية الأمصار، ثم سرعان ما حدث التحول في بداية الخلافة الأموية وبداية الترف ومرحلة الغنى التي عرفت بها الخلافة الإسلامية بسبب الفتح الإسلامي وانعكاساته المالية على مراكز الخلافة الإسلامية.

ويظهر من الروايات المختلفة أيضا أنه لم تتخذ بمدينة مصر أي دار للإمارة، فقد اتخذ عمرو بن العاص من مسكنه الخاص دارا للإمارة، وكان الأمراء والولاية يسكنون دورا خاصة بهم ثم تصير بعد وفاتهم إلى أبناءهم.

وكان ولاية مصر، كل وال ينزل بعد ذلك داره ويتخذها مركزا للحكم.⁽⁴⁸⁾ فيذكر الكندي (ت 350هـ) مثلا: أن عبد العزيز بن مروان أمر ببناء الدار المذهبة سنة سبعة وستين هجرية (67هـ)، وكانت غربي المسجد وقد سميت "المدينة" لسعتها.⁽⁴⁹⁾ وقد صارت لآل عبد العزيز، وأحرق هذه الدار آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد فقال له أصحابه: "إنها دار بني عبد العزيز، وقد أعظمت فيها النفقة"⁽⁵⁰⁾. فكونها دار بني عبد العزيز يدل دلالة واضحة أنها كانت ملكية خاصة ولم تكن ملكية عامة ولم يذكر الكندي وهو من المتقدمين أنها اتخذت دار للإمارة بعد إمارة عبد العزيز، خاصة إذا علمنا أن ولاية مصر لم يكونوا كلهم من أفراد عائلة الخليفة ولكن المقرئزي وهو متأخر عن الكندي ذكر أنها اتخذت دارا للإمارة: "وهذه الدار - الدار المذهبة- اتخذها عبد العزيز بن مروان دارا للإمارة وذلك سنة 67هـ وشيدت في المنطقة التي انحصر عليها النيل وظلت دارا للإمارة حتى نهاية العصر الأموي"⁽⁵¹⁾.



مجلة علوم إنسانية WWW.ULUM.NL السنة السابعة: العدد 44: شتاء 2010 - Issue 44, Year 7th, Jan. -
ويذكر البعض أن ترك اتخاذ دارا للإمارة ضل ساريا منذ فتح مصر إلى أن صار الأمر لمعاوية بن أبي سفيان، فاتخذ دار الرمل (44هـ، 47) دارا للإمارة،⁽⁵²⁾ ويظهر أيضا أن هذه الدار كانت دارا خاصة، فهي أولا لم تسم دار الإمارة بل سميت دار الرمل وهي تحريف لدار رملة ورملة هو اسم لبنت معاوية بن أبي سفيان.
والأمر الثاني فإننا إن سلمنا بأنها اتخذت دارا للإمارة، فإن ذلك لم يدم طويلا، لأن عبد العزيز بن مروان لما قدم مصر سنة 65هـ اتخذ دارا غيرها وهي الدار المذهبة ولم يسكن دار الرمل التي يفترض أنها كانت دارا للإمارة.

الأسواق:

لم يذكر المؤرخون الذين كتبوا عن الفسطاط عن تخصيص عمرو بن العاص مكانا للأسواق وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص أنشأ دارا لعمر بن الخطاب عند المسجد الجامع تعرف بدار البركة وكتب إليه بخبرها، فأجابه عمر بأنه مقيم في الحجاز فكيف تكون له دارا في مصر؟ وأمره باتخاذها سوقا للمسلمين فكانت سوقا يباع فيها الدقيق، وهذا الخبر انفرد بذكره ابن عبد الحكم ولم يذكره ابن دقماق والكندي والمقريزي.
ويفترض أنه كان لكل خطة سوقها الخاص وكانت هذه الأسواق صغيرة نسبيا وقد ذكر ابن عبد الحكم جملة من هذه الأسواق في سياق الحديث عن خطط مصر كما ذكر المقريزي جملة من هذه الأسواق بالتفصيل.

ومن هذه الأسواق سوق وردان نسبة موسى بن وردان وربما تأسست هذه السوق في خلافة الوليد بن عبد الملك، قال ابن عبد الحكم عند حديثه عن دار الرمل (... فلما ولي مسلمة بن مخلد سأله معاوية داره فأعطاه إياها وخط له في الفضاء داره ذات الحمام التي يسوق وردان)⁽⁵³⁾.

سوق البربر:

ويرجع اسمها إلى نزول البربر فيها على كعب بن يسار بن صبة العيسى، وكانت تقع في آخر زقاق القناديل ولها أربعة طرق وربما كانت هذه السوق تحتوي على أسواق فرعية تخصص بحسب المهن والحرف فنعثر فيها على سوق الحجامين.
ومن الأسواق التي انفرد بذكرها ابن عبد الحكم سوق الحمام وهناك سوق أخرى تعرف بسوق الدقيق وقامت هذه السوق في دار لأحمد بن المدبر عامل الخراج للخليفة العباسي المتوكل.
ويذكر ابن دقماق أسماء بعض الأسواق، وهي مرتبطة بأسماء الحرف والمهن، كسوق الصيادين وسوق السماكين وسوق الزياتين وربما كانت الأسواق بأسماء الأقاليم كسوق البربر أو سوق المغاربة وسوق العراقيين.⁽⁵⁴⁾

ولقد عرفت مدينة الفسطاط تطورا عمرانيا سريعا تبعته حركة تجارية نتيجة استدعت إنشاء مراكز تجارية جديدة كافية لاحتواء هذا النشاط الازدهاري النشط. فبنيت تبعا لذلك القيساريات فظهرت في مدينة الفسطاط جملة من القيساريات والقيسارية كلمة رومية معربة وهي عبارة عن تجمعات للأسواق والمحلات وأغلب قيساريات الفسطاط أمر ببنائها عبد العزيز بن مروان ومن بين هذه القيساريات: قيسارية هشام: وبنيت هذه القيسارية في ولاية الحرين يوسف (105هـ) وسبب إنشاءها أن نهر النيل قد انحصر عن جزء من الأرض فكتب الوالي إلى الخليفة هشام بن عبد الملك "إن النيل قد انكشف على أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد فإن رأي أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها، فإن الناس مضطرون إليها فإن له في بناءها قيسارية"،^أ فشرع في بناءها سنة 107هـ وفرغ منها سنة 108هـ وهي المعروفة بقيسارية هشام وكان يباع فيها البز الفسطاطي.⁽⁵⁵⁾



قيسارية العسل:

وورد ذكر قيسارية العسل عند الحديث عن تجديد قرة بن شريك للمسجد سنة 93هـ فقد ذكر ابن عبد الحكم: "أن الناس بعد هدم المسجد كانوا يصلون الجمعة في قيسارية العسل وظلوا على تلك الحال حتى أتم شريك بناء المسجد ونقل إليها المنبر: "...وحول قرة المنبر حين بنى المسجد إلى قيسارية العسل فكان الناس يصلون فيها الصلوات ويجمعون فيها الجمع حتى فرغ من بناء المسجد والقبلة في القيسارية إلى اليوم"⁽⁵⁶⁾ وذكر المقرئ في نفس الرواية عند حديثه عن تجديد جامع عمرو في ولاية قرة بن شريك.⁽⁵⁷⁾

قيسارية ابن أبي الثريا: وورد ذكرها عند ابن دقماق وكانت خطة للنضر بن بشير بن عمر المزني ثم صارت إلى ابنه بشر بن النضر وكان قاضيا لمصر زمن عبد العزيز بن مروان.⁽⁵⁸⁾
قيسارية أبي مرة: وهي خطة كعب بن عدي العبادي اشتراها منه عبد العزيز بن مروان وحولها قيسارية.⁽⁵⁹⁾

قيسارية المحلي: وهي قيسارية خاصة بالصرافين وتقع في سوق الغرابلين والقطارين وتشتمل على ستة أبواب ثلاثة أبواب في جهتها القبليّة وباب في الجهة الشرقية وباب في الجانب الغربي حيث سوق الصوف أما الباب الخير فيقع في الجانب البحري وهي قيسارية عامرة وكان يباع فيها كل أنواع الصوف والخيش والشعر وذلك وقد ضربت هذه القيسارية في القرن 9هـ.⁽⁶⁰⁾
وهناك قيساريات أخرى مثل قيسارية الكباش، وقيسارية الصبانة.. وندل كثرة القيساريات على التطور والازدهار العمراني التي عرفته مدينة الفسطاط فكثرة الأسواق والقيساريات دليل على حركة نشاط تجارية متقدمة ولا شك أن هذه الأسواق والقيساريات كانت قبلة الكثير من التجار والمتسوقين ومن أهل الفسطاط ومن غيرها من الأقطار الإسلامية

قائمة المصادر والمرجع

- (1) سعيد ناصف: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر، مكتبة الزهراء الشرق القاهرة، ص 9
- (2) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص 103
- (3) نفسه، ص 90
- (4) حديث نبوي
- (5) ابن خلدون: المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، ص 220
- (6) نفسه، ص 224
- (7) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 47.
- (8) زكريا بن محمد بن محمود القريني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص 8
- (9) نفسه، ص 08
- (10) نفسه، ص 06
- (11) سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 55
- (12) محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 76
- (13) نفسه، ص 78
- (14) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدين للطباعة، سنة 1987، ط 2، المجلد 2، ص 33
- (15) سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 60.
- (16) لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشري، ترجمة محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة، ص 429.
- (17) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج 5، ص 421.
- (18) عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ص 250.



- (19) سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 57
- (20) نفسه ، ص 28
- (21) خالص الأشعب: المدينة العربية، كلية الآداب جامعة بغداد، ص 8.
- * عمرو بن العاص بن وائل السهمي: فاتح مصر، أسلم في صلح الحديبية، ت 43 هجرية.
- (22) ياقوت الحموي: مصدر سابق، ص 262،
- (23) الحموي: نفسه، ص 263.
- المفريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية،
- (24) القاهرة، ط 2، 1987، ج 1 ص 296.
- * صالح بن علي العباسي: عم السفاح والمنصور، ولي مصر، وتعقب من فيها من بني أمية بالقتل. ت 151 هجرية.
- * أحمد ابن طولون: صاحب مصر والشام، توفي عام 269 هجرية.
- * المعز لدين الله الفاطمي: نزار بن معد، صاحب إفريقيا والمغرب، توفي عام 386 هجرية.
- * جوهر بن عبد الله الصقلي: باني الأزهر، دخل مصر بعد وفاة كافور، سنة 358. توفي عام 381.
- * شاور بن مجير، أبوشجاع السعدي: من هوازن، ولي الصعيد الأعلى، ثم ثار واستولى على وزارة مصر، قتله شيركوه، سنة 564 هجرية.
- * شيركوه بن شادي: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين، وهو عم صلاح الدين. ت 564.
- (25) المقرئزي: نفسه، ص 286.
- * البلاذري أحمد بن يحيى: مؤرخ، من أهل بغداد، ت 279 هجرية.
- (26) الحموي: مصدر سابق ، ص 263.
- (27) ابن الأثير: نفسه، ص 394، 395
- (28) المقدسي: مصدر سابق، ص 197.
- (29) المقرئزي: مصدر سابق، ص 297.
- (30) ياقوت الحموي: مصدر سلبق، ص 263.
- (31) عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 215.
- (32) نفسه، ص 218.
- (33) المقرئزي: مصدر سابق ، ص 297
- * عدها عبد الجبار ناجي فجعلها عشرون خطة. أنظر عبد الجبار ناجي، مرجع سابق من ص 217 إلى ص 222. وانظر
- المقرئزي: ج 1 ص 299/296.
- (34) المقرئزي: نفسه، ص 347
- (35) نفسه، ص 247، ج 2
- (36) نفسه، ج 2، ص 247.
- (37) الكندي: نفسه، ص 95.
- (38) المقرئزي: مصدر سابق ، ج 2، ص 248.
- (39) كريز ويل: نفسه، ص 29.
- (40) المقرئزي: مصدر سابق ، ج 2، ص 248.
- (41) الكندي: نفسه ص 161.
- (42) كريز ويل: مرجع سابق ص 30.
- (43) المقرئزي: مصدر سابق ، ص 248.
- (44) الكندي: مصدر سابق ه، ص 85-86.
- (45) أنظر المقرئزي: مصدر سابق ، ص 249 250.
- (46) المقرئزي: مصدر سابق، ص 248.
- (47) الكندي (محمد بن يوسف): تحقيق حسين نصار، دار صادر بيروت، ص 85، 86
- (48) عبد البار ناجي: مرجع سابق، ص 215.
- (49) الكندي: مصدر سابق ، ص 70.
- (50) الكندي: نفسه، ص 177.

- (51) المقريري: مصدر سابق، ه، ج2، ص 252.
- (52) ابن دقماق: مصدر سابق، ص5.
- (53) عبد الجبار ناجي: نفسه، ص226.
- (54) عبد الجبار ناجي: نفسه 227.
- (55) عبد الله كامل موسى نفسه ص 260.
- (56) ابن عبد الحكم: فتوح مصر واخبارها، شحاته عيسى ابراهيم، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001 ص 30.
- (57) أنظر المقريري: ج2، ص 248.
- (58) ابن دقماق: الانتصار، ص 39
- (59) نفسه، ص 39.
- (60) عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 227-228.